الخطاب العقائدي وقصدية المتكلم في نهج البلاغة
(الإشهار عن بدء خلق الكون)

د. هديل عودة شهيب
جامعة ذي قار/ مركز التطوير والتعليم المستمر

الملخص:

تسعى هذه القراءة الى تسليط الضوء على الاشهار عن بدء خلق الكون بوصفه واحدا من الأسئلة المهمة التي رافقت الانسان منذ نشأته الأولى الى وقتنا الحالي ، ذلك لان الغيب أيديولوجية اجتماعية، وبيئية مهيمنة على اللغوس العربي قبل الاسلام ، فاخذ ابعادا وطرقا مختلفة ومتنوعة لمعرفة ما خفي عنه، بوصفه مخلوقا فضوليا يتوق الى معرفة مكنونات الامور، وما ضمر منها، وهذا النوع من الاشهار يكون بالضرورة منبني على تراتبية معرفية غيبية مترسبة في الذهن الجمعي الديني لدى المتلقي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعكس الروابط التواصلية بين منشئ النص و متلقيه من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: (الخطاب العقائدي، قصيدة المتكلم، نهج البلاغة).

Doctrinal discourse and the speaker's intentionality in Nahj al-Balagha
(Announcing the beginning of the creation of the universe)

Dr. Hadeel Odeh Chehayeb
Dhi Qar University/Center for Development and Continuing Education

Abstract:

This reading seeks to shed light on the announcement of the beginning of the creation of the universe as one of the important questions that have accompanied man from his first inception to the present time. This is because the unseen is a social and environmental ideology that dominated pre-Islamic Arabic language, so it took on different and diverse dimensions and methods for knowing what was hidden from it. As a curious creature who yearns to know the hidden meanings of things, and what is hidden from them, this type of advertising is necessarily based on an unseen cognitive hierarchy deposited in the religious collective mind of the recipient. This, on the one hand, and on the other hand, reflects the communicative ties between the creator of the text and its recipients, on the one hand. Other.

Keywords: (ideological discourse, first-person poem, Nahj al-Balagha).

المقدمة :

شكل الغيب أيديولوجية اجتماعية، وبيئية مهيمنة على اللغوس العربي قبل الاسلام ، فاخذ ابعادا وطرقا مختلفة ومتنوعة لمعرفة ما خفي عنه ، بوصفه مخلوقا فضوليا يتوق الى معرفة مكنونات الامور، وما ضمر منها إذ لا (يقل العرب قبل الاسلام شأناً في الاهتمام بالغيب ومحاولة إدراكه عن غيرهم من الشعوب ، حتى أنهم نسجوا الاساطير عنها ، ورفعوا من شأن مدركيه . واستعانوا بوسائل مختلفة اعتقدوا أنها تعينهم في مهمتهم لإدراك الغيب ، منها : التنجيم ، الفراسة ، والقيافة ، والطرق والخط ، والتطير والفأل ، والتنبؤ بتكليم الاصنام ، والاستخارة عن طريق الاستقسام بالازلام (القداح) ، والقرعة ، والرؤيا .)

[١] ، أن (الاعتقاد بقدرة الكهنة على التنبؤ بالغيب كانت شائعة في تاريخ العراق القديم ، وذلك لاعتقادهم أن الآلهة خصتهم بهبة اختراق الغيب ومقاومة الشر فصار بوسعهم التنبؤ بوجد هذه القوى بواسطة عناصر عدة وعلامات فأل كثيرة وتسخيرها لخدمتهم . ويمكن الاستدلال بشواهد عن التبؤ الكهنة بالغيب ، منها : إن نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس الى عبادته وكان له كهان ومنجمون)[٢]

وبذلك (مكان عملية الابداع بهذا المصدر الغيبي الذي يصدر عنه قول الشاعر بإملاء قوى خارجية غيبية وليس الشاعر فيها سوى وسيط أو رسول ناقل ليس إلا . وثمة اثر غيبي يرتبط بالقوى التي كان يعتقد إن الشاعر يحملها وبها يدافع عن نفسه ويؤثر في خصومه وأكثر ما يكون هذا المعتقد عندهم في الهجاء.)[٣]

، ويقسم الغيب الى قسمين : (الأول : العلم بالغيب بالذات (الاستقلال) ، وهو انكشاف واقع الأشياء ذاتا للعالم ، دون الحاجة الى الاستعانة بأي شيء آخر ، وإنما مقتضى وجوده هو أن يخفى عليه شيء من خفيات الأمور كائنة ما كانت ، وهذا هو العلم بالغيب الحقيقي ، .... وهذا لا يكون إلا الله عز وجل .

الثاني : العلم بالغيب بالغير (التبعية) ، وهو انكشاف واقع الاشياء للعالم ، بالغير وبالتبع ، فهو بمقتضى وجوده غير مجهز للعلم بخفيات الأمور ، فليس له أي استقلال بالعلم بالغير ، وإنما يعلمه

بواسطة تعليم العالم بالغيب بالذات له ، واطلاق علم الغيب على هذا القسم فيه نوع من المسامحه ؛ لظهور علم الغيب في العلم الاستقلالي لا ما كان بإعلام الله تعالى ، مضافا الى أنه بعد علم بعض الرسل به يكون قد خرج عن وصف الغيب وأصبح مشهوداً لهؤلاء الرسل ، نعم هو غيب بالنسبة لغيرهم ، ود تقدم أن الغيب والشهادة من المعاني الإضافية . ..... ان الفرق بين الغيب الذاتي والغيب التبعي هو الاستقلال والتبعية ، فالعالم بالغيب بالذات يكون مستقلا في علمه بمتض وجوده ، والعالم بالغيب بالغير ليس مستقلا في علمه بمقتضى وجوده أيضاً وإنما هو تابع فيه ، بمعنى أنه يعلمه عن طريق تعليم العالم بالغيب بالذات له .)[٤]، والغيب من حيث ارتباطه بالزمن ينقسم الى ثلاثة اقسام (غيب الماضي ، وغيب الحاضر ، وغيب المستقبل .

١- غيب الماضي : ونعني به (الاحداث التاريخية الماضية التي لم نشهدها نحن ، والماضي هو كل لحظة تخرج من إطار الحاضر ، ومن هذا قوله تعالى (غلبت الروم) ، ... ، ويدخل في هذا الغيب قصص جميع الانبياء والمرسلين _ عليهم افضل الصلاة والسلام _، وماجرى لهم مع اقوامهم ، من حوادث ووقائع ، لولا القران الكريم لما عرفناها .

٢- غيب الحاضر : لقد ذكرنا قبل قليل ملائكة الله تعالى الكاتبين لافعال الانسان ، سواء أكانت خيرا أم شرا ، وقال سبحانه (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، وكلمة (يلفظ) في الاية فعل مضارع ، والفعل المضارع يدل على الدوام والاستمرار ، وهذا يعني أن الملائكة تقوم بوظيفة آنية غيبية وهي تسجيل الاعمال ، بدليل أننا لا نرى هذه الملائكة ، ولا نعرف صحفهم ، ولا كيفية كتابتهم ، وهل يكتبون مثلنا بالاقلام أم بشيء آخر ؟ ....

٣- غيب المستقبل : أي الحوادث والحقائق والوقائع التي سوف تقع في المستقبل ، سواء أخبر عنها الاسلام أم لا .)[٥] ، وهذا النوع من الاشهار يكون بالضرورة منبني على تراتبية معرفية غيبية مترسبة في الذهن الجمعي الديني لدى المتلقي ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعكس الروابط التواصلية بين منشئ النص و متلقيه من جهة أخرى.

١- خلق السموات والأرض : -

يعد خلق الكون وبدايته من الاسئلة المهمة التي رافقت الإنسان منذ بداياته الاولى الى وقتنا الحالي بوصفه كتله من الفضول وحب الاستكشاف ، ومن ثم راح يصور ويضع الاساطير والخرافات

التي تزيل احساسه بالخوف من جهة ومن جهة أخرى قناعته بإرضاء الطبيعة إذ ما شحت بجودها عليه ، ذلك لان حجم (الكون وعمره خارج إدراك الإنسان العادي . ففي مكان ما بين اتساع الفضاء وخلود الزمن يضيع كوكبنا المعروف بالأرض ، وفي المنظور الكوني فإن كل الاهتمامات الإنسانية تبدو غير مهمة بل بائسة ومع ذلك فان جنسنا البشري فتي وفضولي وشجاع وواعد.)[٦]، غير أن فكرة البداية (ونشوء الكون في القران الكريم يمكن أن نلتمسها من خلال ثلاث كلمات قرآنية مهمة جدا في هذا المجال وهي { الرتق ، والفتق ، والدخان } في آيتين كريمتين ، إحداهما قوله تعالى : { أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما } ، والآية الثانية قوله تعالى : { ثم استوى إلى السماء وهي دخان } .

وهنا يمكن أن تقدم هذه الكلمات الثلاث ضمن سياقاتها القرآنية صورة علمية إجمالية لبداية الكون ونشوئه ، فالرتق في اللغة : (الضم والالتحاد)، والفتق : (الفصل بين المتصلين) ، أما الدخان فهو : (المستصحب للهيب) ، ..... هذا ما يظهر من الايتين المذكورتين ، ويناسب ما توصل العقل البشري اليه)[٧].

ومن منطلق أن نهج البلاغة هو حاشية القرآن نرى أن الإمام قد وطد هذه الحقيقة عبر خطبته أشهر فيها عن بداية الكون و خلقه ، ففي ذلك نص له يقول بصفة السماء : (ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ، ولاحم صدوع انفراجها ، ووشج بينها وبين أزواجها ، وذلل للهابطين بأمره ، والصاعدين بعمال خلقه ، حزونة معراجها ، ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها وفتق بعد الارتتاق صوامت أبوابها . و أقام رصداً من الشهب الثواقب على نقابها ، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأيده وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره ، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها ، وقمرها آية ممحوة من ليلها ، فاجراهما في مناقل مجراهما ، وقدر سيرهما في مدارج درجهما ليميز بين الليل والنهار بهما ، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما ، ثم علق في جوها فلكها ، وناط بها زينتها ، من خفيات دراريها ، ومصابيح كواكبها ورمى مسترقي السمع بثواقب شهبها ، وأجراها على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ، ومسير سائرها ، وهبوطها وصعودها ، ونحوسها وسعودها.)[٨].

يشي الخطاب اعلاه على تراتبية خلقية نظمت على مقاصد متعددة تشهر عن تساؤل غيبي يجتاح فكر المتلقي ، ويخلق في كنهه الدهشة لما يسمع ، إذ (يعتمد على تتنقل المتلقي معه في

متابعة حركة الخلق نصيا ؛ لانه ينتقل من الحديث عن ماهية الخالق ، ثم الى ركائز الخلق ، ثم الى بدايات الخلق مستخدما الجمل القصيرة الفعلية في الغالب للتدليل على رشاقة عملية الخلق وتوزيعها بحسب الحاجة الى ذلك ، دون ان يكون هنالك ترهل في الجمل أو نمطية تأخذ بالمتلقي إلى الملل والضجر ، كما أن الزمان والمكان هنا متداخلان غاية التداخل مما يعني انه ليس هناك من سبيل إلى ذلك)[٩] ، فنراه (ع) يلقي بمقاصده عبر سردا غيبيا تفوق توقعات متلقيه مما ألفه من الأقوال ، ليشكل ذلك البعد _ الغيبي _ مادته الخام الذي تنبجس بوساطته مقاصده بالنفاذ الى ذات سامعه أن يجذبه اليه ، ومن ثم ينتقل به الى التراتبية الثانية والمتمثلة بـ الاعلان عن عملية خلق السماء ، وعن بديع الخالق ، وقدرته ، و قوته ، وعن تفرد الإله بخلقه ، إذ يتنقل في نظمه بين الافعال الماضية و بالفاعل القادر والمتمثل بـ (نظم ، لاحم ، وشج ، ذلل ، ناداها ، التحمت ، فتق، اقام ، امسكها ، جعل ، رمى ، ناط ،اجراها) ، إذ شاكل الإمام (ع) بين الفاعل المعبر عنه بالضمير الغائب والمتمثل بالأفعال الخاصة بالله ، وبين الفاعل المتمثل بالضمير المتصل والدالة على السماء ، مثاله (التحمت ، امسكها ، اجراها ، ناداها) ، ليشظي رتابة الخطاب ويشد انتباه المتلقي لما يقوله ، ومن ثم ينزاح به _السامع _ الى تبنيه بما أضفى على مسامعه من قدرة الخالق و التفكر في مقدرة الله ، وهنا تكمن وظيفة الاشهار بوصفه ايقونة مضيئة اضطلع عليها الامام (ع) في خطابه كيما يعيد ترتيب المفاهيم الاسلامية والخلقية الى ذهن السامع ، فبوساطة الافعال الماضية التي اضطلعت عليها الخطبة استطاع الامام (ع) أن يشهر عن عملية الخلق ، لتكن الافعال ادوات
اسهمت في الوصول الى غاية منشئ الخطاب .

٢- خلق الأرض ودحوها على الماء :

يذهب بعض المفسرين إلى إن الأرض خلقت أولا ومن ثم السماء وما بينهن وما عليهن ، إذ يورد ابن كثير في كتابه : (قال تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم أستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) وقال تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا

السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذا يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء لأنها كالاساس للبناء ..)[١٠] ، مثال قول امير المؤمنين يشهر عن عظمة خلق الله وقدرته بوصف خيالي ، يصهر المتلقي في آتون العجب و التدبر قائلا :

(كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ، ولجج بحارٍ زاخرةٍ ، تلتطم أواذي أمواجها ، وتصطفق متقاذفات أثباجها ، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها ، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها ، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها ، وذل مستخذياً ، إذ تمعكت عليه بكواهلها ، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيا مقهوراً ، وفي حكمة الذل منقاداً أسيرا وسكنت الأرض مدحوة في لجة تياره ، وردت من نخوة بأوهِ واعتله وشموخ أنفه وسمو غلوائه ، وكعمته على كظة جريته ، فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته فلما سكن هياج الماء من تحت أكنافها ، وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكتافها فجر العيون من عرانين أنوفها وفرقها في سهوب بيدها وأخاديدها ، وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها ، وذوات الشناخيب الشم

من صياخيدها ، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديهما ، وتغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها وركوبها أعناق سهول الأرضين ، وجراثيمها ، وفسح بين الجو وبينها ، وأعدّ الهواء متنسماً لسكانها ، وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها ، ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ، ولا تجد جداول الأنهار ذريعة إلى بلوغها حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تحيي مواتها ، وتستخرج نباتها ، ألف غمامها بعد افتراق لمعه ، وتباين قزعه ، حتى إذا تمخضت لجة المزن فيه ، والتمع برقه كففه ، ولم ينم وميضه في كنهور ربابه ، ومتراكم سحابه ، أرسله سحاً متداركاً ، قد أسفّ هيدبه تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبهِ، فلما ألقت السحاب برك بوانيها ، وبعاع ما استقلت به من العبء المحمول عليها أخرج به من هوامد الأرض النبات ، ومن زغر الجبال والاعشاب فهي تبهج بزينة رياضها، وتزدهي بما ألبسته من ربط أزهارها وحليه ما سمطت به من ناضر أنوارها ،)[١١]

شكلت نواة هذه المقطع من الخطبة اعلاه التراتبية الاشهارية الاولى التي ارتكزت في بث مقصديتها الى المتلقي الاول وما يؤثر فيه من اعمال اللغة الموحية آنذاك من جمالية الاستعارة و اللفظ الناجع ، وقوة التأثير في المتلقي ، وبلاغة الاسلوب في ايصال الفكرة والفهم للسامع ، إذ مثلت اللغة التداولية الاولى التي اعتملت عليها الخطبة ، ومن ثم بوصفها هي المقصدية الاولى التي عمد اليها المنشئ

الذي يمثل الطرف الاول في العملية التواصلية ، إذ اضطلعت الخطبة على الاسلوب واللغة بوصفها الأداة الاكثر نجاعة في ايصال بغية المتكلم الى السامع ومن ثم التأثير فيه لاعمال فكره والتدبر في خلق الله و ادخال العجب الى نفس السامع فيما يسمع من امور غيبية؛ لسببين الاول عظمة الخالق وقدرته التي شكلت اللغة التداولية بوصفها الانجع على اعمال القوة الانجازية لدى السامع لبيان عظمة الله عز وجل ومن ثم بيان حال الارض كيف كانت عصية وباسلوب تصويري اقرب الى ذائقته اللغوية من جهة واقرب الى مقدرته العقلية في التشبيه الحسي لعملية الخلق ، إذ نرى أن الامواج التي يشببها وفق المنظور البيئي للموجه الاول الذي شكل التراتبية الاشهارية الاولى ، باشياء اقرب الى نفسه وافهم الى عقله واعجب الى ذاته منها الفرس او الناقة ، وكيف ان قدرة الله لا تعلو عليها شيء ولا يخرج من جلبابها شيء ، على حين تمثل السبب الثاني في اضفاء مشروعية المنشئ بوصفه هو الأحق بان يتبع وان يتخذ خليفة واميرا للمؤمنين لعلمه بتلك الاسرار التي علمها الله ، ومن ثم جدة المعلومات التي نشرها على خافقي سامعيه ، لينزاح به من عصي الرأي الى الدهشة والعجب ومن ثم الامتثال الى الوجه التي يريدها الامام (ع) منه ، على حين شكل الجزء الثاني من الخطبة والمتمثل بقوله :

(وجعل ذلك بلاغاً للأنام، ورزقا للانعام ، وخرق العجاج في أفاقها ، واقام المنار للسالكين على جواد طرقها ، فلما مهد أرضه ، وانفذ أمره ، اختار آدم عليه السلام ، خيرة من خلقه ، وجعله أول جبلته ، وأسكنه جنته ، وارغد فيها أكله واوعز اليه فيما نهاه عنه ، واعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته ، والمخاطرة بمنزلته)[١٢]

تشي الخطبة اعلاه التي مثلت التراتبية الاشهارية الثانية التي اضطلعت عليها الخطاب ، والمقصدية الثانية التي اعتملها الامام (ع) لموجه مستقبلي ليردم الهوة بين المشككين والملحدين وبين قدرة الله وعلمه وعظمته إذ مثلت جملة (جعل ذلك بلاغا للانام) بؤرة النص اعلاه و مركزية التراتبية الاشهارية التي اعلن فيها الى الموجه المستقبلي ، اي ان خلق الله للارض قد ابلغ فيها قوما غيرنا فيه ، وما يدل على ذلك بقوله (اقام المنار للسالكيين ، .... فلما مهد ارضه وانفذ امره ..) اي ان هناك حياة واقواما قد سكنت الارض غير النبي ادم ولم يكن هو اول من سكنها بل كان اول هيأة على هيأة البشر هو_ آدم _ ، فبعد ان مهد الارض خلق ادم واسكنه الجنة ، ولم يقل اسكنه الارض ، وهذا

يفسر لنا حقيقة الالواح الطينية السومرية فيما ذكرت تلك الالواح بالحياة التي كانت ومن ثم القصص التي ذكرت هي قصص الانبياء و هذا يفسر قوله _جعله بلاغا للانام) ، إذ نلحظ ان تلك الالواح قد كانت اعجازا للقران و ومن ثم لقول الامام من جهتين :

الاولى ما ذكره الامام (ع) : (جعل ذلك بلاغا للانام) ، إذ هذا القول يذهب باتجاهيين الاول: ما ذكر في الاساطير السومرية بوجود حياة سبقت آدم متمثلة بالقول (أما القسم المتبقي من الأسطورة فانه ينتقل من خلق الإنسان بشكل عام إلى خلق نماذج بشرية ربما كانت على شكل مخلوقات مشوهة او شاذة)[١٣] ، ايضا ورود قصص الانبياء كلها في تلك الالواح وهذا بدوره يعزز ما ذهبنا اليه اعلاه الذي مثل الاتجاه الاولى ، اما الاتجاه الثاني فهو دليل قطعي على اعجاز قول الإمام ومعرفته بعلم الاثار وما سبق من حقيقة وجود حياة سبقت النبي ادم ، أما الثانية افصحت عن الدلائل العلمية التي يسوقها لنا العلم اليوم والمتمثلة بنظرية الكون .

اما قوله (فأقدم على ما نهاه عنه – موافاةً لسابق علمه – فاهبطه بعد التوبة ، ليعمر أرضه بنسله ، وليقيم الحجة به على عباده ، ولم يخلهم بعد ان قبضه ، مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته ، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحملي ودائع رسالته ، قرناً ، فقرناً ، حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم_ حجته ، وبلغ المقطع عذره ونذره ،)[١٤]

ينتقل الإمام (ع) في هذا المقطع إلى التراتبية الاشهارية الأخرى و المحمله بدوال قصدية متعددة الموجهات ، أولها انه يستمر بادلجة الحدث الخلقي لأدم ، فبعد إن عصى ربه وتقرب إلى ما نهاه عنه أشار إلى سبب تحريمه لاقتراب وما يترتب على ذلك ، أما الثانية الهبوط على الارض ، وتوالي الأنبياء لتعريف والاعتراف بوحدانية الله و التأكيد على ربوبيته حتى بعد إن قبض روح ادم ، اما الثالثة يشير ان الله لم يخلق بشرا دون نبي يعظهم الى عبادة الله والإيمان برسل التي تاتي بعده وهذا بدوره يفسر ما ذكر بالألواح السومرية من تشابه في قصص الانبياء التي وردت في القران و كذلك وردت في تلك الألواح ، إذ (اعتمدت اغلب لنصوص في هذا المقام على المفردة السردية التي تؤدي دورا مهما في الاقناع ، كما كان للعامل النحوي في استخدام صيغة الامر التي هي من اهم الوسائل الطلبية التي بها يتحقق الترغيب ويهدف طور التحريك في الخطاطة السردية الى ابراز دور العامل اي الذي يفعل الفعل باحداث فعل اخر يكون مناسبا لتحقيق برنامج الدور العاملي الذي هو بمنشئ فاعل

عامل آخره وتكون هذه العملية باستخدام الاقناع بعدة وسائل منها التحذير والترغيب وتسعى الذات الفاعلة الى اجراء اتصال بموضوع القيمة تنفيذا لرغبة المرسل اي صاحب الطلب ويسمى هذا الطور في الخطاطة السردية التحريك الذي هو " مثل اقناعي بالدرجة الاولى أي ان المرسل يحمل الذات على تبني مشروع معطى وتنفيذه" وسمى فعل الفعل ويقصد به الفاعل (المرسل) الذي يقوم باحداث فعل لفاعل اخر عن طريق قيام المرسل بفعل الاقناع)[١٥] ، لتشكل إعجازا الى موجه مستقبلي ، ومن ثم يحقق غاية الإشهار الأولى وبؤرته المركزية إلا وهي التواصلية مع المتلقي على اختلاف أزمنته وثقافته .

أما قوله :

(وقدر الارزاق فكثرها وقللها وقسمها على الضيق والسعة فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها ، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها و فقيرها ثم قرن بسعتها عقابيل فاقتها وبسلامتها طوارق آفاتها ، وبفرج افراحها غصص اتراحها ، وخلق الآجال فاطالها وقصرها ، وقدمها وأخرها ، ووصل بالموت أسبابها ، وجعله خالجاً لأشطانها . وقاطعاً لمرائر اقرانها عالم السر من ضمائر المضمرين ، ونجوى المتخافتين ، وخواطر رجم الظنون ، وعقد عزيمات اليقين ، و مسارق ايماض الجفون ، وما ضمنته اكنان القلوب و غيابات الغيوب ، وما اصغت لاستراقه مصائخ الاسماع ، ومصائف الذر ، ومشاتي الهوام ، ورجع الحنين من المولهات ، وهمس الاقدام ، ومنفسح الثمرة من ولائج غلف الاكمام ، ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ، ومختبأ البعوض بين سوق الاشجار وألحيتها ، ومغرس الاوراق من الافنان ، ومحط الامشاج من مسارب الاصلاب ، وناشئة الغيوم ومتلاحمها ، ودرور قطر السحاب في متراكمها ، وما تسفي الاعاصير بذيولها وتعفو الامطار بسيولها ، وعوم نبات الارض في كثبان الرمال ، ومستقر ذوات الاجنحة بذرى شناخيب الجبال ، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الاوكار ، وما اوعبته الاصداف ، وحضنت عليه أمواج البحار ، وما غشيته سدفة ليل أو ذر عليه شارق نهارٍ ، وما اعتقبت عليه أطباق الدياجير ، وسبحات النور . وأثر كل خطوةٍ ، وحس كل حركةٍ ، ورجع كل كلمةٍ ، وتحريك كل شفةٍ، ومستقر كل نسمةٍ ، ومثقال ذرةٍ ، و هماهم كل نفسٍ هامةٍ وما عليها من ثمر شجرةٍ ، أو ساقط ورقةٍ ، أو قرارة نطفةٍ، أو نقاعة دم ومضغة، أو ناشئة خلقٍ، وسلالةٍ، لم يلحقه في ذلك كلفةٍ ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدعه من خلقه

عارضةٍ، ولا اعتورته في تنفيذ الامور وتدبير المخلوقين وملالة و لا فترة بل نفذ فيهم علمه وأحصاهم عدُّه ، ووسعهم عدله ، وغمرهم فضله ، مع تقصيرهم عن كنهِ ما هو أهله . اللهم أنت اهل الوصف الجميل ، والتعداد الكثير أن تؤمل فخير مؤمل وان ترجَ فاكرم مرجوّ. اللهم وقد بسطت لي فيما لا ابدح به غيرك ، ولا اثني به على أحد سواك ، ولا أوجهه الى معادن الخيبة ومواضع الريبة، وعدلت بلساني عن عن مدائح الادميين والثناء على المربوبين المخلوقين . اللهم ولكل مثنٍ على من أثنى عليه مثوبةٌ من جزاءٍ ، أو عارفةٌ من عطاءٍ ، وقد رجوتك دليل على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة . اللهم وهذا مقام من افردك بالتوحيد الذي هو لك، ولم يرى مستحقا لهذه المحامد و الممادح غيرك ، وبي فاقة اليك لا يجبر مسكنتها إلا فضلك ، ولا ينعش من خلتها إلا منك وجودك ، فهب لنا في هذا المقام رضاك ، وأغنني عن مد الايدي الى سواك ؛ انك على كل شيءٍ قديرٍ.)[١٦]

ينتقل الامام (ع) الى التراتبية الاشهارية الاخرى ذات المقصدية المتعددة إذ يهدف بهذه التراتبية اماطة اللثم عن مجريات الامور واسرارها ، فأي حال كنت عليها ايها الانسان ؛ إنما هو بحكمة من الله ، فقدر الارزاق و جعلها متفاوته بين العباد بناء على ما تراه عين حكمته ، و من ثم قدر الآجال منها ما قصر ومنها ما طال لمقصدية الردع والعبرة والتفكر بحكمته ، فضلا عن الاذعان الكامل الى امر الله من غير ملل او اعتراض ، و يستمر الإمام (ع) في بيان عظمة الباري وقدرته وكيف انه لا تخفى عليه خافيه فهو عالم بما تخفى الصدور، وما تسر النجوى ، وما تحمل الذر ، و ما تكون عليه الادار كله عنده علمه ، واسبابه ومقدرة بقدر معلوم لا كما يدعي المشككون ان الكون تسيره الطبيعة ، فعلم الله وقدرته لا يقتصران على الانسان فقط ؛ إنما هو عالم بسر النباتات ومالها وما عليها ، و كذلك ما تخفى البحار من اسرار كله علمه عند الله ، وهذا الاشهار في لاعمال خيال السامع كيما يتفكر ويتدبر في قدرة عظمته وكيف بسط سيطرته وملكوته بعينه فلا تاخذه سنة ولا نوم عن تلك الاحياء ، ولا يشغله عنها شاغل ، فهو يرى ومطلع على كل نجوى و ما تخفيه كل نفس وكل كائن خلقه على البر ، او البحر ، او الجو ، ليدل بعد ذلك على مقاصد عديدة منها نفاذ قدرة الله وعلمه الى كل كائن حي ، علمه بكل الموجودات ، لحكمة منه قدر الاشياء بالمقدار التي تكون عليها ، ليتعظ المتلقي من تلك الوعظ ، جاعلا من الاشهار والمتحقق بوساطة اللغة ، ومالها من اساليب الطباق والتشاكل التي وردت في النص معمارا هندسيا وايديولوجيا وسايكولوجيا الى خطابه الذي

بدوره يزيد من فاعلية القوة التأثيرية لدى المتلقي ، ومن ثم الانتقال الى التراتبية الاخيرة المتمثلة بالتراتبية الحجاجية التي من شأنها دفع السامع الى اعمال فكره بوساطة ما يطرحه منشئ الخطاب من حجج عقلية واستدلالية تروم الى التغيير من قناعات المتلقي ، ومن ثم الانزياح به الى الوجهة التي يريدها المتكلم ، ليحقق بعد ذلك التراتبية الهرمية للاشهار الا وهي الدعاء الذي شكل مثوله البؤرة المركزية الثانية في خطابه _ع_ ، بوساطة ما اضفاه في دعائه ، ومن ثم تبني النصح التي وجهها الامام (ع) الى السامع إلا وهي توحيد الله ، و الاقرار بـ تفرده في الملكية والعبودية له، و ان نحمد الله بما اجاد به علينا من نعم نعلمها واخرى خفية علينا بحكمة منه ، ومن ثم التوجه الى الله فيما قصر علينا من عسر الحال أو ضيق العيش ، و ان نسعى الى رضا الله الذي من شانه يقينا ن فورة غضبه وسخطه ، فبعد ذلك العرض الى تراتبيات الخطبة تتضح فيما تكمن مقاصد منشئ الخطاب بوصفها ايقونة الاشهار التي اضطلع عليه كلام الامام (ع) .

٣- خلق آدم :

إن ذي اللب لا يعروه شك في إن الله خلق الإنسان فاحسن خلقه ومن ثم صوره في هيأت مختلفة ، إذ يورد القرآن وهو كلام الله حقيقة مما خلق في قوله تعالى (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى ثم أنتم تمترون)[١٧] ، ومن ثم يورد الله مراحل هذا الخلق ومن ثم الكيفية التي جاء عليها عبر سلسلة الاحداث القصصية التي يكتنفها النص لتصبح بعد ذلك حقيقة علمية باتت بالنسبة الى الاكتشافات اللاحقة متمثلا بقوله تعالى (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤**)[١٨]، ومن منطلق أن نهج البلاغة حاشية القرآن نرى ان القرآن قد وضح كيفية عملية الخلق ، إذ نراه يقول :

(انما فرق بينهم مبادي طينهم ، وذلك أنهم كانوا فلقة من سبخ أرض وعذبها ، وحزن تربة وسهلها ، فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون ، وعلى قدر أختلافها يتفاوتون ، فتام الرواء ، ناقص العقل ، وماد القامة ، قصير الهمة ، زاكي العمل ، قبيح المنظر ، قريب القعر ، بعيد السبر ، ومعروف الضريبة ، ومنكر الجليبة ، وتائه القلب ، متفرق اللب ، وطليق اللسان ، حديد الجنان .)[١٩].

يشي النص الى بؤرة مركزية يتمحور حولها إلا وهي انقسام الناس الى نوعين الصالح والطالح وكل شخص ينجذب الى قرينه ، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى { (فإنا خلقناكم من تراب) ، أي انظروا الى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم فإنا خلقناكم اي خلقنا كل فرد من تراب في ضمن خلق آدم(ع) ، فالله خلق كل فرد من افراد البشر له خط من خلقه عليه السلام اذا لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر افراد الجنس انطواء اجماليا متبعاً لجريان آثارها على الكل ،فكان خلقه لادم (ع) هو اعجاز خلقي أضفى الى قدرته (جل) اشهارا كونيا ذا بعد يوتوبي ، فالله بوساطة خلقه لادم من طين قد اقفل على المشككين بان الله قد تكون قدرته تنصب في شيء مادي دون الاخر ، فالتنوع هذا كان لاجل مقصدية اجابها الامام (ع) وأورد سببها في خطبة سيأتي تحليلها ، فيبدأ الامام اماطة اللثام عن سر هذا الحدث الكوني لخلق ادم، ومن ثم طبيعته ومادته ، عبر سلسلة احداث مثلت في انسجامها وانتظام احداثها تراتبية اشهارية غيبية اعلن فيها منشئ الخطاب الى مقصدية الله من خلق ادم من طين ، إذ كانوا مختلفي الطبيعة المادية للحظة التكوين اي اجناس هذا الطين مختلفة ، والذي بدوره قد شكل اختلاف أطباعهم وميولهم واخلاقهم وخلقهم ، ومن ثم يبين السر وراء تقربنا لشخص دون الاخر؛ إذ يبين سبب الامام (ع) وراء ذلك هو أننا (فهم على حسب قرب أرضهم يتقاربون) ، فاحساسنا ان هذا الشخص قريب لنا هو لاننا من ارض واحدة ، وبعد ذلك ينتقل _الامام _ الى التراتبية الاشهارية الاخرى : وهي الاختلاف المتفاوت في ما بيننا ، من حيث المقدار ،ومن حيث طبيعة الاختلاف ، سواء كانت من حيث الصفات المادية أي الشكل ، واللون ، والمظهر ، أو من حيث الصفات المعنوية من الذكاء او البلادة ، أو سلاطة اللسان ، أو حدة العقل ، إذ بعد هذه التراتبية الاشهارية اكتنفت على مقاصد جوهرية اعتملت خلد منشئ الخطاب ، أن يجيب على اسئلة ربما تجتاح فكر الاخر في يوما ما، والذي يكمن في: ما سبب تقربنا من فئة او اشخاص ونميزهم عن الاخرين ؟ إذ نراه فاضل بين فئتين مختلفتين وتعد المفاضلة (من الاساليب الاشهارية الناجحة ....، ومن ابرز تقنيات الحجاج ، وادواته الاقناعية التي يعول عليها كثيرا في عملية ايصال مقاصد المخاطب الى المتلقي ؛ لانها تتكئ في اشتغالاتها على وسائل عقلية ووجدانية متعددة ، فيقوم المشهر بتسخير طاقاته الابداعية والذهنية ، عبر ايراد الحجج العقلية والنقلية المختلفة ، وتحشيدها في الخطاب الاشهاري ، من اجل ابراز مزايا احد الشيئين الذي تتم المفاضلة بينهما ،

واقناع المتلقي بافضليته على الشيء الاخر .)[٢٠] هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يفصح عن كنهه مقدرة الله وسر قدرته في التنوع بالخلق من حيث الطبيعة السايكولوجية ، و المعنوية ، عبر اللغة بوصفها (تشكل الحامل الفعال للاثر المتراكم في منظومة الذاكرة والمخيال ، وتشكل المفتاح وعنصر الترميز ، فهي تشكل أيضا عنصر التنبيه القادر على احداث الفعل المعرفي في فضاء زمني إبداعي خاص ، وعلى هذا الاساس تقوم اللغة بدور فعال في إعادة صياغة الفهم والوعي بحركة الزمان عبر التحكم بإيراد الوقائع والاحداث التي تؤلف الملاحم ، من قبل منتج النص _الملحمة ، ....، مما يعني أنه يبني نصه المنتج عبر المعرفة الكلية التي يمتلكها بمجريات الملحمية زمكانيا)[٢١] ، وهذا الاخير قصدا أخر قصده الامام في خطابه و الموجه الى متلقيه الذي اخفيه عنه ادراك كنهه ما حدث والكيفية التي خلق بها آدم ، ليتفرد بها (ع) ، و من ثم شكل هرمية المقصد للخطاب الاشهاري والمتمثل بالاشهار عن نفسه (ع) ، بما يسهم لدى سامعه القناعة التامة بما يقول ومن ثم الاخذ بما يقدمه الامام من نصح و توجيه و العمل به وهنا تكمن وظيفة الإشهار .

وفي نص آخر : (ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها ، وعذبها وسبخها ، تربة سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلة حتى لزبت ، فجبل منها صورةً ذات انحناءٍ ، ووصولٍ واعضاءٍ ، وفصولٍ اجمدها حتى استمسكت ، واصلدها حتى صلصلت ، لوقتٍ معدود ، واجلٍ معلوم .

ثم نفخ فيها من روحه فتمثلت إنساناً ذا أذهانٍ يجليها ، وفكرٍ يتصرف بها ، وجوارح يختدمها ، وادواتٍ يقلبها ، ومعرفةٍ يفرق بها بين الحق والباطل ، والاذواق والمشام ، والألوان والاجناس ، معجوناً بطينة الالوان المختلفة ، والاشباه المؤتلفة ، والاضداد المتعادية ، والاخلاط المتباينة، من الحر والبرد ، والبلة والجمود ، والمساءة والسرور)[٢٢].

يشي الخطاب العلوي اعلاه ، الى حقيقة كونية غيبية في الخلق عمد الإمام إلى الإفصاح عنها إلى متلقيه يرنو عبر ذلك إلى مقاصد تكتنف ذات منشئ الخطاب ، إذ نرى الامام بنى هندسية خطابه عبر تراتبية اشهارية متواشجة الاحداث ، متخذا من اسلوب التتابع الحدثي اداة في الافصاح عن مكنونات مقاصده ، إذ شكلت هراركية الاحداث ثيمة نصية لجأ اليها الامام (ع) كيما يعمد الى نقطتين: الاولى كانت بمثابة هدنة نفسية لما يعتريها من تلاحق للاحداث ، على حين مثلت الثانية اضفاء شرعية الوجود والفعل للخلق ، الذي بدوره يستميل المتلقي الى الاقناع بما يعتمل خلد المتكلم ،

إذ يبدأ الامام (ع) تسلسل الاحداث خلق الله لادم ، فبعد جمعه الى انواع مختلفة من التربة من عذبها وسبخها ، انتقل الى التراتبية الاخرى الذي مهد اليها عبر (حتى) التي شكلت في النص بمعنى انتهاء غاية الجمع والانتقال الى تراتبية وفعل انجازي اخر والمتمثل بقوله (ولاطها بالبلة حتى لزبت) ، اي حولها الى مكون واحد طينه ومن ثم الصقه مع بعضه جميعا ، ومن ثم ينتقل الى تراتبية اشهارية اخرى تمثلت بقوله (فجبل منها صورةً ذات انحناءٍ، ووصولٍ واعضاءٍ ، وفصولٍ اجمدها حتى استمسكت) ،فبعد ان اصبحت مكونا متماسكا ، شكل منها خلقه أنى يشاء (جل) ومن ثم انتقل (ع) الى التراتبية اشهارية اخرى تمثلت بقوله (واصلدها حتى صلصلت) ، أي اصبحت قوية ويابسة ، ومن ثم ينتقل الى هرمية التراتبية الاشهارية التي شكلت حجاجية الاقناع لدى سامع إذ سرعان ما تعصف في خلده ، كم استغرق ذلك من الوقت ؟ أ احدث هذه الافعال الانجازية دفعة واحدة ؟ أم انها كانت في مدة زمنية مختلفة ليجيب الامام عن ذلك السؤال بقوله (لوقتٍ معدود ، واجلٍ معلوم .) ، هذا من جهة، ومن جهة اخرى شكلت اللغة بوصفها اداة تكشف عن مقاصد المنشئ ، بوساطة ما هو متداول منها (مثلت حروف العطف وهو الواو ، والدال على تسلسل الاحداث تتابعا عبر فترات زمنية ، دليلا اخرى اسهم في اماطة اللثام عن حيرة وقلق المتلقي ، إذ يكشف بوساطة هاتيك العناصر ان (هناك زمنا منتهكا بالاختزال ، تجاوزه النص في قصدية واحدة ؛ ليس لانه لم يسيطر عليه ، بل لانه يسعى الى غاية من وراء السرد ، وانتهاك الزمان والمكان على حد سواء أو ما يدعي الزمكان تتمثل في بث مقومات الوعي الانسان الكونية)[٢٣] . هذا يعني ان تراتبية الخطاب الاشهاري اسهمت في بيان عملية الخلق والكيفية التي كانت عليها ، ليقصد بذلك (ع) مقصدين: الاول تمثل بقدرة الله على الخلق بذلك التنوع ومن ثم ذلك التنظيم الخلقي ، على حين مثل التراتب بالفترات الزمنية المتقطعة ان الله (جل) قادر على انجاز فعل الخلق بوقت واحد من غير ذلك التراهل ؛ ليعطي الى الانسان مثالا بالصبر والتأني في مجريات اموره على اختلاف مستوياتها الايدلوجية ، فخلق (الله آدم بيديه بطول ستون ذراعا من طين يابس إذا نقر عليه سمع له صوت ، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغير لونه وريحه ؛ من طول مكثه مصداقا لقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون)[٢٤] ، وإضافة الى ذلك أن هذه القبضة _من الطين _جاءت كعينة ممثلة بين القوة وضعف ،وقسوة ولين ، على الصورة التي نعيشها اليوم ، وشبه الرسول (ص) الناس في أخلافهم وطباعهم بالأرض ،

فالهينين كهينها والقساة النكدين كحزنها ، والطيبون كطيبها ، والخبيثين كخبيثها ، ويتضمن هذا التشبيه مدحا للهينين الطيبين وذما للقساة النكدين العسرين ، ومصداق ذلك ما رواه عن أبي موسى الأشعري قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض ، والأسود وبين ذلك ، فالسهل والحزن والخبيث والطيب)[٢٥]، ليشكل الخطاب بعد ذلك اشهارا غيبيا اعتمل خلد المتلقي بقدرة الله واسرار اعجازه الكوني ، الذي بدوره يسهم الى جذب السامع الى بدائع الله ، التي خفيت عليه ، ومن ثم جاء للافصاح عنها؛ كيما يميل بقلب المتلقي الى الوجه التي ارادها منشئ الخطاب، والعمل بما يقوله له ،عبر رغبة حقيقة نابعه من ذات ادهشت بما القيه على ناظريها من قميص الدهشة ؛ ليرتد ناظريها وهو على قناعة تامة بمقدرة خالقه ، وهذا بدوره يشكل ثيمة الخطاب الاشهاري.

وفي خطب اخرى نراه يقول :

(الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء ، واختارهما لنفسه دون خلقه ؛ وجعلهما حمىً وحرماً على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده . ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب . { إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجدوا الملائكة كلهم أجمعون إلا ابليس)[٢٦]، اعترضته الحمية فافتخر على آدم ، وتعصب عليه لاصله فعدو الله أمام المتعصبين ، وسلف المستكبرين ، الذي وضع اساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ؛ وادرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل. إلا ترون كيف صغره الله بتكبره ؟ ووضعه الله بترفعه ؟ فجعله في الدنيا مدحوراً ، واعد له في الاخرة سعيراً .

ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الابصار ضياؤه ، ويبهر العقول رؤاه ، وطيب يأخذ الانفاس عرف لفعل ، ولو فعل لظلت له الاعناق خاضعة ، ولخفت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله _ سبحانه _ ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون اصله تميزاً بالاختبار لهم ، ونفياً الاستكبار عنهم ، وابعاداً للخيلاء منهم)[٢٧]

يشي الخطاب اعلاه الى ثيمة وجودية كثيرا ما اسهمت في التشكيك بمقدرة الخالق من جهة ، ومن جهة الاستعلاء ،و الانزياح وراء قول الشيطان، ومن ثم تبني ردة فعله ازاء دهشة خلق ادم من طين ،

ليأتي بالرد عليهم عبر هذا الخطاب الاشهاري ، إذ عمد النص الى تفكيك القناعات الجمعية للبعض وراء بساطة خلق الله لادم ،ومن ثم لطبيعة المادة التي خلق منها ليعيد (ع) لملمة تلك القناعات ويصهرها في اتون الاشهار الخيالي ،فيردم الهوة بين المشككين ، والسبب وراء اختلاف في طبيعة خلق الملائكة ، الشيطان ، وادم ، ومن ثم طريقة العرض عبر السؤال الاستفهامي الذي القاه الله على سكان سماواته ليس لعدم معرفته بما سئل لكن للاشهار عن بضاعته الجديدة التي خلقها من جهة ، ومن جهة اخرى الى بيان عجز كل من الملائكة على الرغم من قربهم من الله بعدم معرفة السبب، ومن ثم عجز الشيطان ، ولمتمثل بقوله (ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ؛ ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب) ، فالامام يجيب عن سبب سؤال الله ليختبر سكانه لمعرفة خبايا القلوب ، أي ان الله بسؤاله هذا قد عمد الى الاستشراف لردة فعل الشيطان التي ستصدر منه ، ومن ثم الاستعلاء الناجم من طبيعة التكوين الخلقي له ،بوصفه قد خلق من النار، وادم قد خلق من طين ، ومن ثم شكل هذا القول لحظة غيبية مستقبلية اسهمت في زيادة البعد الغيبي للحدث ، إذ نرى الامام يفصح عن ردة فعل الشيطان ازاء ما امره به الله بالسجود ،على الرغم من انه من طين قائلا : (اعترضته الحمية فتخر على آدم ، وتعصب عليه لاصله فعدو الله أمام المتعصبين ، وسلف المستكبرين ، الذي وضع اساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ؛ وادرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل. إلا ترون كيف صغره الله بتكبره ؟ ووضعه الله بترفعه ؟ فجعله في الدنيا مدحوراً ، واعد له في الاخرة سعيراً) ، فالرفض كان تعصبا لاصله ، وهنا الله ومن ثم الامام يضرب لنا مثلا خلقيا ازاء ممن يتصف بهذه الصفات وممن يتعصب للاصل ،ومن ثم الترفع والغرور والتكبر فيذهب بمذاهب الشيطان لتكن عاقبته كما هي عاقبته ؛ ذلك لانه نازع الله في رداء الجبرية ، فالله بهذه الحادثة قد نهانا عن التعصب على اساس اللون والجنس ، ليشذب النفس التي انهكتها ظلمة التعالي ، ذلك ان الله قد جعل الخلق هو اساس الدين بقوله نبيه انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ، إذ شكل هذا الاخير القصد الجوهري وثيمة الخطاب الاشهاري لذي قصده الامام (ع) في إنشاء نصه ، ومن ثم يبين الامام لما اختار الله الطين كمادة خلق منها ادم ولم يخلقه من النور بقوله (ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الابصار ضياؤه ، ويبهر العقول رذوؤاه ، وطيب يأخذ الانفاس عرف لفعل)، فالله قادر (عز) على ان يخلق ادم من نور يخطف سنا ضيائه الابصار

، ويبهر العقول ، فيجيب الامام (ع) السبب بعدم فعل ذلك بقوله (ولو فعل لظلت له الاعناق خاضعة ، ولخفت البلوى فيه على الملائكة ، ولكن الله _ سبحانه _ ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون اصله تميزاً بالاختبار لهم ، ونفياً الاستكبار عنهم ، وابعاداً للخيلاء منهم) ، فالسبب هو متعدد القصديات ، الأول الاختبار لنا ، ونفى الاستعلاء والاستكبار كما فعل الشيطان ، فالسؤال الاستفهامي الاشهاري الذي ألقاه الله على ملئه قد خلق ردة فعلين مختلفين أسهم في ذكرهم من قبل الإمام تشاكل بوصفه كان ثيمة البعد الخيالي ان يجوب بذاته وسمعه بما سمع ومن ثم الامتثال لما يريده الامام (ع) ، ومن قبله الله (عز) ، إذ شكل اخبار الله للملائكة بقوله (اني جاعل في الارض خليفة) أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال (وهو الذي جعلكم خلائف) الارض فاخبرهم بذلك على سبيل التنويه يخلق آدم وذريته كما يخبر بالامر العظيم قبل كونه فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض .)[٢٨] ، على حين شكلت ردة فعل الشيطان بعدا نفسيا اخر نابع من تعصبه لاصله بوصفه قد خلق من نار ، فكان خلق الله (تعالى ادم من أديم الأرض أي وجهها بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة وسواه ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا ، فكان سؤال الملائكة من قبيل الاستعلام والاستكشاف على وجه الحكمة من خلق آدم ولم يكن اعتراضا أو حسدا كما بدا من سلوك إبليس وقد يكون بحثا عن الطمأنينة فيما لو شاب سلوكهم اليومي نوع من التقصير عبادة الله وتحميده وتهليله حتى يكون آدم هو من يقدم عليهم لذا كان سؤالهم ودليل ذلك تباين نظرة الملائكة لآدم بعد ذلك ،أما نظرة ابليس لآدم عليه السلام : يبدو أن إبليس قد نظر لآدم وهو مسجى فوجده أجوف ودخل في جوفه وقال لئن سلطت عليه لأهلكنه ، ..... ولعل هذا مرده الى جوف إبليس من آدم كخلق جديد فجعل يستكشف كنهه ويستبصر أمره استعدادا لمصارعته في جولات قادمة ولا يمانع أن يهلكه إن يسلط عليه لضعفه كونه فارغ منه الداخل وهذه النظرة جاءت نتاج الكبر والمعصية والحسد لآدم الذي جاء نظريا مصداقا لقوله تعالى (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) .)[٢٩] .

وفي نص آخر : (ثم أسكن آدم داراً أرغد فيها عيشته ، وآمن فيها محلته ، وحذره أبليس وعداوته ، فاغتره عدو نفسه عليه بدار المقام ، ومرافقة الابرار ، فباع اليقين بشكه ، والعزيمة بوهنة ، واستبدل بالجذل والجلاً ، وبالاعتزاز ندما .)[٣٠] .

يشي الخطاب اعلاه الى تراتبية حدثية غيبية يشهر فيها الامام (ع) عن ما بعد خلق ادم ، ليعطي صورة متكاملة ذات ابعاد تواصلية للحدث ، التي تدل عليها (حتى) الماثلة في النص ، فضلا عن دلالة الحرف بوصفه دالا على التراتب الحدثي ، إذ بعد خلقه والموقف الذي صدر عن الشيطان برفضه للسجود له ، كان على ادم ان يدرك حقيقة عداوته له و ليتخذ بينه وبين تواصله جبل عتيا ، و من ثم توجيه الله له بتحذيره الصريح عبر التشهير بحقيقة ما يكنه الشيطان من مكيدة نابع من استعلاء وتكبر والمتمثلة بقوله (وحذره أبليس وعداوته)، فيورد الامام سبب تلك العداوة فضلا عن الموقف السائد عن الاصل الكوني في طبيعة المادة التي خلق منها ادم ، عن المادة التي خلق منها الشيطان ، أنه استكثر عليه دار الخلد الجنة واصطحاب الابرار من الملائكة وربما خلقا غير ادم هم من الإبرار والمتمثل بقوله (فاغتره عدو نفسه عليه بدار المقام ، ومرافقة الإبرار) ، غير انه _ ادم _ تمرد على الأنساق السائدة في ملكوت السماوات إلا وهي الطاعة المطلقة لله والمتمثلة في الملائكة فكان عاقبة تمرده وعصيانه أن هبط الى الارض ومعه الشيطان ، والمتمثل بقوله (، فباع اليقين بشكه ، والعزيمة بوهنة ، واستبدل بالجذل والجلاً ، وبالاعتزاز ندما) ، إذ اسهمت الافعال الماضية الواردة في هذه العبارة عن البعد النفسي الذي اجشم على ذات ادم بعدم سماعه امر الله واطاعته ، وما اسرى في روحه من الندامة ، فاصبح على ما فعله من النادمين ، فتوجيه الامام (ع) الى متلقيه هو استدعاء دوال عدة في هذا الخطاب أولها أن ادم لم يعتبر من موقف تمنع الشيطان للسجود وعصيان ربه ، كان الاجدر به ان يكن على حيطة من امره ، هذا بدوره ينعكس علينا نحن ابناء ادم اننا نتعض من تلك الحادثة فالعدواة مستمرة من الاباء الى الابناء الى يوم الحساب ، أما ثانيا بيان ان عاقبة عصيان الله والتمرد على منظومة الطاعة المطلقة هي النبذ كما هو الشيطان أو النزول الى الارض ليواجه مصيره كما أدم بعد دار الخلد التي كان بها ، فضلا عن التأثير النفسي الذي قصد به صاحب الخطاب بوساطته هو البعد الغيبي الذي اعتمل ذات المتلقي فيما سمعه من حقائق وما ارسمها في خلد مخيلته حتى كانه شهد وسمع ، يسهم هذا الاخير بدوره الى الانزياح نحو الوجه التي يبتغيها

الامام (ع) ، لتنحقق مقاصده التي استدعاها في خطابه بوصفها ايقونات اشهارية شكلت هندسية النص و نجاعته.

و في موضعا اخر يشير ابن حديد الى التتابع الحدثي الذي اراده الامام ، عبر تراتبية اشهارية ذات مقاصد تربوية دينية ، ومن ثم يشي عن التتابع بعد نزول والوعود والمواثيق التي اخذها على نفسه بعد توبته ، من اقامة الحجج على عباد الله بطاعته ، ، وتتابع الرسل والانبياء ، حتى بعد موته لتصل الى النبي (ص) و الذي بعث هاديا ونذيرا إذ يتمثل ذل بقوله (ع) : (فلما مهد ارضه ، وانفذ أمره ، اختار آدم عليه السلام خيرة من خلقه ، وجعله أول جبلته ، واسكنه جنته ، وارغد فيه آكله ، واوعز إليه فيما نهاه عنه ، واعلمه انه في الاقدام عليه التعرض لمعصيته ، والمخاطرة بمنزلته ؛ فاقدم على ما نهاه عنه موافاةً لسابق علمه . فاهبطه بعد التوبة ، ليعمر أرضه بنسله ، وليقيم الحجة به على عباده ، ولم يخلهم بعد أن قبضه مما يؤكد عليهم حجة ربوبيته ، ويصل بينهم وبين معرفته ، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من انبيائه ، ومتحملي ودائع رسالاته ؛ قرناً فقرناً ؛ حتى تمت بنبينا محمدٍ صلى الله عليه وآله حجته ، وبلغ المقطع عذره ونذره .)[٣١]

لتكتمل صورة المشهد للخطاب الاشهاري عبر تراتبية اشهارية غيبية كان المقصد وراء توجهها الى موجه متعدد المستويات ، وممتد عبر الزمكان هو اطاعة الله وتجنب عصيانه ، واخذ العبر ممن سبقنا ، لتكن تلك المقاصد التربوية والاخلاقية آتونا غيبيا سعى الإمام (ع) إلى صهر ذات متلقيه العصية ومن ثم تشذيبها بما أمره الله ، و الامتثال بقوله والابتعاد عما نهى عنه .

الخاتمة :

وبعد عرضنا الى قصد الامام (ع) بالإشهار عن بدء الكون اشهارا عقائديا الغاية منه ردم الهوة بين المتلقي الذي يتوق الى الوقوف على حقيقة الخلق وبين جمال وبراعة الخالق ،ذلك لإن الاشهار عن المواقف الغيبية قد اتخذ مقاصدا متنوعة ومتعدده تهدف الى التذكير وتشذيب الذات المتمردة والمرتدة عن المسار التربوي والاخلاقي الذي نص عليه القرآن ومن بعده الاحاديث النبوية ، فكانت خطب الامام (ع) ، ذات بعدا تهذيبيا يهدف الى صهر النفوس التي تشظت لهوا وحبا لمفاتن الدنيا فجاء الخطاب كيما يعيد مسار تلك النفوس وتذكيرها بما تناسته أو نسته قصدا أو سهوا ، فنرى الاشهار اخذ بعدا غيبيا اسهم في جذب المتلقي اليه لما يسمعه من جدة المعلومة الغيبية التي ألقيت على مسامعه ،

فضلا عن اقناعه ان منشئ الخطاب هو أولى بالاتباع و الحكم و التصديق بقوله ومن ثم تنفيذ ما القي عليهم من نصح وارشاد .

الهوامش:

[١]- إدراك الغيب عند العرب قبل الاسلام : أ. م. د. سعد عبود سمار / مجلة واسط للعلوم الانسامية عد ١١/ : ٢٤٣

[٢]- إدراك الغيب عند العرب قبل الاسلام : أ . م. د. سعد عبود سمار / مجلة واسط للعلوم الانسانية عد١١: ٢٨١

[٣]- الاثار الغيبية في الشعر بين الجاهلية والإسلام : ضياء علي عبد الرضا / مجلة اللغة العربية وآدابها _ عد ١٠ ٢٨٩:

[٤]- خصائص النبوة (دراسة في النقد الديني) : م. د. جاسم هاتو فاخر الموسوي / مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية / جامعة بابل / عد ٣٤ / آب / ٢٠١٧ : ٤٩٢

[٥]- عالم الغيب في العقيدة الاسلامية : د. ثائر إبراهيم خضير ، ود. مراد عبد الله برع / مجلة الجامعة الاسلامية : ع١٧/ ٢٠٠٦ : ٦٣- ٦٤

[٦]- الكون : د. كارل ساغان ، ت. نافع أيوب لبس ، م. محمد كامل عارف / دار المعارف / سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب _ الكويت / ١٩٩٣ : ١٩

[٧]- السماء والكون في القران ونهج البلاغة : السيد عبد الأمير المؤمن / المؤسسة الأسلامية للبحوث والمعلومات / ط١/ ١٤٢٨ : ١١٧

[٨]- شرح نهج البلاغة : للبحراني : مج١/ ٤٤٠

[٩]- الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة مقاربات في الاسطورة والملحمة والوجود : د. عبد الحسين العمري / ط١/ دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ا/ العراق / ٢٠١٦ : ٤٧

[١٠]- البداية والنهاية : ج١/ ١٥

[١١]- شرح نهج البلاغة / للبحراني : مج١/ ٤٥٢- ٤٥٤ ، ينظر مثله : شرح نهج البلاغة : للبحراني : مج١/ ٥٢٠

[١٢]- شرح نهج البلاغة / للبحراني : مج١/ ٤٥٢- ٤٥٤

[١٣]- سومر أسطورة وملحمة : د. فاضل عبد الواحد علي / ط٢/ دار الشؤون الثقافية / ٢٠٠٠ : ٩٦

[١٤]- شرح نهج البلاغة / للبحراني : مج١/ ٤٥٢- ٤٥٤

[١٥]- سيمياء العواطف في نهج البلاغة : حيدر نعيم مغتاض /رسالة ماجستير /جامعة ذي قار / كلية الاداب / ٢٠١٨: ١٧٢- ١٧٣

[١٦]- شرح نهج البلاغة / للبحراني : مج١/ ٤٥٢- ٤٥٤

[١٧]سورة الانعام : آية ٢

[١٨]- سورة المؤمنون : آية : ١٢- ١٤

[١٩]- شرح نهج البلاغة : للبحراني : مج ٢/ ١٦٣

[٢٠] - الخطاب الاشهاري في المرويات الادبية الاندلسية / محمد كاظم عجيل / اطروحة دكتوراه / جامعة البصرة / كلية التربية / ٢٠١٩: ١٣٠

[٢١]- الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة مقاربات في الاسطورة والملحمة والوجود: د. عبد الحسين العمري/ ط١/ دار نيبور للطباعة والنشر / ٢٠١٦ : ٨٤

[٢٢]- شرح نهج البلاغة : ابن حديد :ج١/ ٧٩

[٢٣] - الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة مقاربات في الاسطورة والملحمة والوجود : د. عبد الحسين العمري / ط١، دار نيبور / ٢٠١٦ : ٧٩

[٢٤] - سورة الحجر : آية ٢٦

[٢٥]- م . ن : ١٦

[٢٦]- سورة الدخان / آية ٧١-٧٤

[٢٧]- شرح نهج البلاغة : لبحراني : مج ٢/ ٢٣٠-٢٣١ ، ينظر مثله : شرح نهج البلاغة : لابن حديد : ج١/ ٧٩

[٢٨]- البداية والنهاية : ج١/ ٧٠

[٢٩]- قراءة تربوية في قصة خلق آدم عليه السلام آدم البداية والتربية : د. سليمان حسين المزين / الجامعة الإسلامية _ غزة ٢٠٠٨- ٢٠٠٩ : ١٥

[٣٠]- شرح نهج البلاغة : لابن حديد : ج١/ ٨٢- ٨٣

[٣١]- شرح نهج البلاغة : لابن حديد : ج٤/ ٥

المصادر والمراجع :

١-القرآن الكريم

٢- الاثار الغيبية في الشعر بين الجاهلية والإسلام : ضياء علي عبد الرضا / مجلة اللغة العربية وآدابها _ عد ١٠

٣- إدراك الغيب عند العرب قبل الاسلام : أ. م. د. سعد عبود سمار / مجلة واسط للعلوم الانسامية عد ١١

٤- الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة مقاربات في الاسطورة والملحمة والوجود : د. عبد الحسين العمري / ط١/ دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ا/ العراق / ٢٠١٦

٥- البداية والنهاية : أبو الفداء الحافظ ابن كثير ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٩٠

٦- خصائص النبوة (دراسة في النقد الديني) : م. د. جاسم هاتو فاخر الموسوي / مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية / جامعة بابل / عد ٣٤ / آب / ٢٠١٧

٧- الخطاب الاشهاري في المرويات الادبية الاندلسية / محمد كاظم عجيل / اطروحة دكتوراه / جامعة البصرة / كلية التربية / ٢٠١٩:

٨- عالم الغيب في العقيدة الاسلامية : د. ثائر إبراهيم خضير ، ود. مراد عبد الله برع / مجلة الجامعة الاسلامية : ع١٧/ ٢٠٠٦ : ٦٣- ٦٤

٩- السماء والكون في القران ونهج البلاغة : السيد عبد الأمير المؤمن / المؤسسة الأسلامية للبحوث والمعلومات / ط١/ ١٤٢٨

١٠- سيمياء العواطف في نهج البلاغة : حيدر نعيم مغتاض /رسالة ماجستير /جامعة ذي قار / كلية الاداب / ٢٠١٨: ١٧٢- ١٧

١١ - سومر أسطورة وملحمة : د. فاضل عبد الواحد علي / ط٢/ دار الشؤون الثقافية / ٢٠٠٠

١٢- شرح نهج البلاغة : أبو ميثم البحراني ، ت: يوسف علي منصور ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان

١٣- شرح نهج البلاغة : عز الدين أبو حامد الشهير ابن ابي حديد المعتزلي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، / لبنان ط٣، ٢٠٠٩

١٤- قراءة تربوية في قصة خلق آدم عليه السلام آدم البداية والتربية : د. سليمان حسين المزين / الجامعة الإسلامية _ غزة ٢٠٠٨- ٢٠٠٩

١٥- الكون : د. كارل ساغان ، ت. نافع أيوب لبس ، م. محمد كامل عارف / دار المعارف / سلسلة كتب شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب _ الكويت / ١٩٩٣